فضل العلم و العلماء

فضيلة الدكتور عبدالرحمن السديس
إمام المسجد الحرام

[سماحة العلامة فضيلة الدكتور الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس إمام الحرم المكي الشريف – لازالت شموس فيوضه علينا بازغة – شرّف دولة باكستان بزيارته في شهر مايو الماضي عام ٢٠٠٧م المصادف جمادى الأولى عام ١٤٢٨هـ، تِفّان ذلك قامت منظمة وفاق المدارس العربية و الجامعات الإسلامية بباكستان بحفلة التقدير و التكريم له ، في ٣ يونيو يوم الأحد عام ٢٠٠٧م المصادف ١٧ جمادى الأولى عام ١٤٢٨هـ بإسلام آباد حيث خطب حضرته – نزولاً عند رغبة الوفاق – في جمع حاشد من المشايخ العظام و العلماء الكرام، فنقله الشيخ عبداللّطيف المعتصم نائب المدير لمجلة "وفاق المدارس" من الشريط ،وراجعه الأخ بَسّام العدناني المعروف بنور الرحمن الهزاروي . فإلى القراء الكرام نص خطابه المجلجل.] ..... (المدير)

الحمد لله ذي العز و العظمة و الكبرياء، رفع شأن العلم و العلماء ، حتى بلغوا ذرَى العلياء، سبحانك ربنا تملكت الحمد حتى مالمحتمد في الحمد حاء ولا ميم ولا دال، و أصلي و أسلم على إمام الحنفاء، سيد الأصفياء، نبينا محمد بن عبد الله ، الذي بلّغ الرسالة و أدّى الأمانة، و نصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده، وصلوات الله عليه وعلى آله و أصحابه وأتباعه بإحسان مادامت الأرض و السماء.

أما بعد :فكم هي المناسبات السعيدة في حيا ة المرء، و كم هي الفرص الطيبة التي تمر على الإنسان!! غير أن أهمّها وأولاها و أعظمها و أسنَا ها ماكان في نطاق المحبة في الله عزوجل والأخوة الإسلامية، و اللقاء بالعلم و أهله ، و الدعاة إلى الله–عزوجل– الذين يبذلون جهوداً مباركة في خدمة دينهم و أمتهم و مجتمعاتهم، أجدها فرصة مباركة – أيها الإخوة في الله – أن أعرب عن شكري و تقديري و سعادتي و اغتباطي و ابتهاجي و أنا أعيش – لا أقول: بلدي الثاني، و إنما أقول: بلدي الأول المكرم – باكستان المسلمة العزيزة الشقيقة العريقة التي نحبها ،و نحب أهلها، وندعولهم دائما بالخير و التوفيق :

أنا في الحجاز و باكستان الهوى ... و بذي الرقمتين في الفسطاط إخواني
و أينما ذكر اسم الله في بلد ... عددت أرجائه من صلب أوطاني

الأخوة الإسلامية و المحبة الإيمانية، لا تحدها حدود، و لهذا بين المشاعر و الأحاسيس المرهفة التي غَمَرَنا بها إخواننا في باكستان حكومةً علماء و عامة، مشاعر نعتز بها :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

هذه الوجوه الطيبة المشرقة النضرة بحب الإسلام و أهله ، و حب الحرمين الشريفين، كلها مظاهر نعتز بها و نَشْرُف ، و نرى أنها من أثر نصرة دين الله عزوجل في أرض الله سبحانه، غير أنني لي عتب علي محبي عتب المحبين ، لا أحب المديح الذي لا أستحق ولا الإطراء الذي أنا أتضاءل أمامه فالأبيات التي قيلت والألفاظ التي ذكرت أنا أعترف أنها من قلوب مُحِبة، لكن محبَّكم أقل منها، فهو حب للحرمين الشريفين، ليس حبا للشخص و العبد الفقير إلى مرضاة الله ورحمته و مغفرته و ستره و عفوه ، و ينبغي علينا أن نحرص غاية الحرص على أن نقول بقولنا أو ببعض قولنا ولا نجعل العواطف أن تسترسل شيئا يصل المرء مالا يصله إلا الأنبياء و مالا يصله إلا الأولياء و نحسب أنفسنا نتضائل أن نكون من أقل عباد الله عزوجل إن لم يتداركنا ربنا بعفوه و ستره و رحمته و مغفرته و مرضاته لكني لا ألوم الإخوة – المحبة في الله تصنع الأعاجيب – لكنها ينبغي أن تلجم بلجام العلم و الحكمة و القصد في القول و السداد فيه و على كل حال، أنا سأظل شاكرا و مقدراً كل هذه العبارات و المشاعر والأحاسيس المرهفة التي في الواقع أخجلتني كثيرا و جعلتني أُحِس بمدى التقصير الكبير ، سواء تجاه إخواني في باكستان أو إخوتي في البلاد الإسلامية كلها أو في العالم أجمع، و أرى أنها تعظم الرسالة ، و تزيد من المسؤولية والتكليف فنسأل الله أن يعين و أن يبارك في الجهود و أن يسدد الخُطا.

دولة باكستان دولة عريقة عزيزة و ما استقلّت إلا خبا في الإسلام قَدَّمَتْ رجالا تها و طاقاتها و ثرواتها و أموالها؛ حبا في الإسلام و تعاليمه و لهذا فلها من الثقه السياسي الإسلامي الشيء الكبير الذي أطمئن فيه نفسي و إخوتي من العلماء و إخوتي جميعا، الشعب الباكستاني المسلم العزيز الأبي أنه مهما كثرت المحاولات و عظمت التحديات، فستظل باكستان بإذن الله عزيزة و عريقة لاتهزها هذه الأعاصير ولاهذه الزوابع :

وكم على الأرض من خضراء مورقة وليس يرجم إلا يانع الثمر

أيها الإخوة الأحبة، الذي يجمعنا في هذا اللقاء هو العلم و أعظم بالعلم من رحب الرابطة – منظمة وفاق المدارس العربية و الجامعات الإسلامية التي هي أكبر مؤسسة تعليمية في باكستان – وفقت أن أتاحت لي هذه الفرصة باللقاء بأهل العلم و الفضل و إخوتي أهل ثراء هذه البلاد و أن نلتقي

للتعاون والتشاور والأخوة في الله و النظر في قضا يا نا الإسلامية في هذا المنعطف الخطير الذي تمربه الأمة الإسلامية.

أيها الأحبة العلماء، لايخفى عليكم منزلة العلم ، أنا لا أتحدث مع عامة، و إنما أتحدث مع نخبة و أتحدث مع كوكبة من أهل الفضل و العلم، فيهم من يفوق المتحدث علما و فضلا و سبقا في العلم و رسو خا فيه و علو كعب في المعارف و العلوم التي تحتاج الأمة الإسلامية، لكنها أحاديث و خواطر الحب للأحباء .

العلم – أيها الإخوة– شرف و نور و فضيلة ، و الجهل عار و رذيلة ، العلم مجمع الشوارد ، و منبع الفوائد، أما الجاهل فإنه إذامات فهو غير مفقود و إذا حضرفكأنه غير موجود وأبلغ من هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم في تشبيهه العالم بالبدر الذي يضيئ للأمة سماء ها و أن العالم الذي يخشى الله عزوجل لاشك أنه نجم ساطع و قمر لامع، ينير للأمة الدروب، فهو علامة يهتدى بها، في بيان الحق و بيان الحلال و الحرام و بيان العقيدة الصحيحة و مايخالفها و بيان السنة من البدعة و بيان الحق من الباطل و الهدى من الضلال ، و هذه مسؤولية كبرى ينبغي أن يضطلع بها علماء الشريعة الذين منّ الله عليهم بهذا الشرف ، و هو التوقيع عن رب العالمين ، فإن العلماء ينهلون من مشكاة النبوة، و إن الأنبياء لم يورثو ا ديناراً ولادرهماً و إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، و إن واجب الأمة – حكوماتٍ و شعوباً– أن ترعى مكانة العلماء و أن تقدر هم و أن تحفظ لهم منزلتهم و أن تتيح لهم الفرص في بيان دين الله عزوجل و بيان ما يحيط به، لا سيما في النوازل و المستجدات و المتغيرات.

و إن المتعرضين للعلماء إنما يتعرضون للشريعة ولهذا قال الإمام ابن عساكر : إن لحوم العلماء مسمومة. إن الوقيعة في أهل العلم كان التنفيذ من علمهم و فضلهم و مكانتهم، فينبغي علينا أن نذب عن أعراض إخواننا المسلمين لاسيما من أهل العلم و الشريعة و أن نحفظ لهم قدرهم، متأسين بذلك بالمنهج الصحيح الذي سار عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من رعايتهم لقدر إخوانه، و إن اختلفوا معهم في بعض المسائل الشرعية. تعرفون أن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مسائل كثيرة في العبادات و المعاملات و الفرائض وماجّد آنذاك ، وكما كان الأئمة الأربعة – الإمام أبو حنيفة النعمان، و الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، و الإمام محمد بن إدريس الشافعي، و الإ مام أ حمد بن حنبل– هؤلاء هم سادات و أئمة الدين الذين ينبغي علينا أن نحتر مهم و أن نقدرهم و أن نحذر من النيل منهم أوالوقوع في أعراضهم فإنهم مجتهدون و كلهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ملتمس غرفا من البحر أورشفاً من الديم، هذه المكانة لاينبغي أن تتضاء ل أمام

بعض قاصري العلم و المعرفة و سفهاء الأحلام و حدثاء الأسنان الذين ينالون من علماء الشريعة ويقعون في أعراضهم، و يعظم هذا أيضا حينما يكون من العالم لأخيه العالم ، فينبغي للعالم من أخيه العالم أن يعرف قدره ، و أن يقدر اجتهاده و أن يحذر كل الحذر من أن يسفّه رأيه ، فالحق ليس حكرا على أحد ولهذا أرى النبي صلى الله عليه وسلم أقر الصحابة في اختلافهم: من كان يؤمن بالله اليوم الآخر فلا يصلينّ العصر إلا في بني قريظة ، الذين صلوا صلواء، و الذين أخروا الصلوة كلهم على رغم رسول الله صلى الله عليه وسلم و قدر اجتهادهم ، يقول أنس رضي الله عنه : كنا نسافر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فمنا الصائم، و منا المفطر، فلا يعيب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم .

يأتي الإمام الشافعي رحمة الله عليه – وهو من هو في العلم – إلى شيخه و تلميذه في نفس الوقت الإمام أحمد رحمه الله ،فيشغب عليهم بعض الأصحاب و الأتباع الذين قد يشغبون إلى يومنا هذا بين أهل العلم ، فيتمثل أبياتاً رائعة تبين ، هذا الحب بين العلماء و هذا التقدير:

قالوا : يزورك أحمد و تزوره ... قلت:الفضائل لاتغادر منزله

إن زارني فبفضله أوزرته فبفضله ... فالفضل في الحالين له

أين هذا المنهج؟ لما ذا تظل مجالسنا عامرة بأن فلانا عميل الجمعيةالفلانية عملت؟ إنه منهج يهتدى في وحدة علماء الشريعة و في احترام بعضهم لبعض و نحن اليوم لسنا إلا أحوج مانكون لى هذه الوحدة و هذا الفهم الذي ينبغي أن نتحد عليه و أن نعتصم بالكتاب و السنة، و أن نحذر كل لحذر من التمام في الخلافات و النزاعات و الشقاقات التي ينبغي أن يترفع عنها أهل العلم :

ولوأن أهل العلم صانوا حصانهم ... ولو عظموهم في النفوس لعظما

ولكنها نور ودنسوها ... حياء وأطماع حتى تجهما

وماذقت في طمع العلم إذكلما ... بدا لي طمع، صيرته لي سلما

أشقى به غرسا و أجنيه ذلة ... من اتباع الجاهل قد كان أحزما

فالعلماء بين الحق والواجب ، فحقهم كبير، و واجبهم عظيم، و مسؤوليتهم الأمانة الملقاة على عواتقهم عظيمة جداء تنوء عنها الجبال الرواسي.يا معشر العلماء ، يا ملح البلد ، من يصلح الملح إذا الملح فسد؟ العلماء ينبغي أن يكونوا أوّلا مخلصين لله عزوجل ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، ينبغي أن يكونوا صادقين في علمهم و دعوتهم ، ينبغي أن يكونوا قدوة حسنة على غير هم في المحبة و التقدير و الاحترام والحرص على الأخذ بما ثبرء به الذمة في مسائل الاجتهاد، والأخذ بالنص

الشرعي و إن اختلف الاجتهاد الذي يراه العالم سواء في وجه الاستشهاد أوفي بلوغه الدليل أوفي الموقف من الدليل تصحيحاً أو تضعيفا ، أوما إلى ذلك مما لايخفى عليكم من أسباب خلاف أهل العلم قديما و حديثا ، فالعالم هو القدوة و الأسوة ، الناس ينظرون إليه :

و غير تقي يأمر الناس بالتقى	طبيب يداوي الناس وهو سقيم
يا أيها الرجل المعلم غيره	فهلا بنفسك قادك التعليم
تصف الدواء للسقام و الضّنى	كي مايصح به و أنت سقيم
ابدء بنفسك فانهَ عن غيّها	فإن انتهت عنه فأنت حكيم
هناك يسمع ماتقول يكتفى	بالعلم منك و ينفع التعليم
لاتنهَ عن خلق و تأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

وأبلغ من هذا قول الله عزوجل : ﴿أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم و أنتم تتلون الكتاب أفلا تعلقون﴾. أيها الإخوة العلماء الأفاضل، إن المتأمل في التّاريخ يجد أن علماء الشريعة ــ و لله الحمد و المنة ــ في كل زمان متواجدون، فلم يخل عصر من الأعصار ولا مصر من الأمصار إلا وفيه من هو قائم في الله بحجته و مدافع عن هذا الدين و الملة و قائم بعلم الشريعة؛ و لهذا فإني أبشر الإخوة الذين لمست في بعض أطروحاتهم و أحاديثهم شيئاً من العاطفة تجاه ماتمر به الأمة الإسلامية من التحديات، وهي عاطفة مشكورة ، لكنني أطمئنهم أنه لايمكن أبداً مهما حاول ، من حاول ، أن يطمس نورالقرآن وعلم السنة النبوية و العلوم الشرعية من نفوس المسلمين فهي فطرة ، هذه العلوم يتزودون منها، كما يتزودون من الماء و الهواء و الغذاء وقد تكون أعظم؛ لأن الماء و الهواء و الغذاء هو فقط في أمورهم الجسدية و المادية ، لكن علوم الشريعة و علوم الكتاب والسنة هي علوم الدين و الدنيا و الآخرة ، ولهذا فلاينبغي أبدا دائماً أن نبخع أنفسنا و أن نأسى و أن نأسف ، فإن هذه علوم طبعية. ماذا أبلغ من قوله تعالىٰ : ﴿و دواماعنتم ، ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ ؟ فهذه الهجمات ليست غريبة ، و إنما هي منهج يهتدى ، و صراع بين الحق و الباطل، فينبغي أن يوطن المسلم عليه ، ويأخذ بالتدابير الحسنة، والأساليب المناسبة؛ للوقوف أمام هذه الهجمات، وهذا هوالواجب ، ولهذا فإن أوّل خطوة تخطى في هذا المجال هي أن يتحد علماء الشريعة و أن يجتمعوا على الحق و قد سرّ ني هذا الوفاق لهذه المدارس التي ــ و لله الحمد والمنة ــ لها نشاطات كبيرة ولها جهود جبا رة في تعليم الناس العلوم الشرعية، ماشاء الله ! سبعة عشر ألف مدرسة ــ ولله الحمد و المنة ــ تضم أكثر من مليونَي طالب وطالبة في التعليم الشرعي ولله الحمد و التوفيق و النجاح. فينبغي أن نذكر و أن نشكره و نتواصى بالزيادة فيه.

إن المتتبع – أيها الإخوة – يجد أن العالم لا بد له من وجود ظهر بعد الله عزوجل يمده و يعينه ويسهل أمره ولايتأمل في المصلحين يجد أنه لم تبلغ الدعوة ولم يبلغ العلم الشرعي لم يبلغ مجالا ، إنما وجد التعاون بين الرعاة و الرعية، الرعاة مسئوليتهم عظيمة، والرعية منهم يأتي في مقدمتهم أهل العلم؛ ولهذا فإني أبشّركم أنه من خلال لقاء نا بالمسئو ولين في جمهورية باكستان أكدنا غاية التاكيد، وهذا هو واجب العالم أن يبقي باكستان إسلامية و أن يحرص على العلوم الشرعية: علوم الكتاب و السنة، ولا يتعرض للمناهج الشرعية فمناهجنا – نحن المسلمين – هي مصدر البهجة و السرور و الخير. لوقدر أن العلوم الشرعية تضاءلت وأحلت محلها العلوم الأخرى المزاحمة هل ستجد هذا الشعور الإسلامي الكبير المفعم بحب الإسلام في مثل هذه اللفتات العظيمة؟ لاشك أنها ستتضاءل ، لكنني أرى أن يكون هناك تعاون بين الرعاة والرعية و العلماء و المسؤولين و العلماء و العامة و أن ينزل العالم إلى ميدان الناس ويوجههم بالحكمة ، نحن ليس علينا إلا البلاغ، نحن لم نطالب بالتغيير باليد إلا بما يستطيع الإنسان ويملك ، فعلى المسلم أن يحرص كل الحرص لاسيّما العالم أن يؤدي الرسالة و البلاغ و أن يكون هذا بحكمة، الذي من الله علينا لما أرسل موسى إلى فرعون فقولا له قولا لينا، لعله يتذكر أويخشى ، أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن، ماكان الرفق في شيء إلازانه ولا نُزع من شي ء إلا شانه .

وليحرص العالم على أن يسلك منهج الوسط والاعتدال ولا يغل في شي ء من الأمور وليقتصد فيها، كمايجب أن يكون لهذه التحديات المعاصرة و لهذه النوازل والمستجدات كأعمال العنف مثلا والتفجير و التدمير ومايقوم أمن البلاد و استقرارها لابد أن يكون له أطروحات واضحة بكل شفافية لتنبيه الناس على أن هذه القضايا ليست قضايا شرعية و أنها تخالف النصوص الشرعية، أن في الحكمة والموعظة الحسنة و الصبر والتحمل مايكون ممدوحة القيام بهذه الأعمال التي لانكسب منها لادينا ولادنيا.ولا آخرة والعياذ بالله .

إن على العالم أن يحرص كل الحرص أن يبين لمن ورد أن يرد هم إلى الوسط الصحيح و أن يبين لمن جفوا وأرادوا الوقيعة بأهل الخير العلم والصلاح و الفضل أن يبين لهم أن هذا ليس منهجاً صحيحاً بكل رفق وحكمة فيتوارد الجميع على منهج الاعتدال، يستمضي سفينة الأمة تشق الأمواج خطرة التي تمر بها وتصل بإذن الله إلى شاطئ الأمن والسلامة والمحبة ، و أن نبذل ما نستطيع في خدمة هذا الدين بالأساليب الحسنة فا لله الله يوتي الإسلام من قبله، **وأرى أن منظمة الوفاق هذه – لله الحمد و المنة – تضطلع بهذا الدور الرائد العظيم في هذا المجال**، و أنا لا أحب أن أثقل عليكم ، قد غمر تموني جدا بأخلاقكم فأنا في الحقيقة من حبي لباكستان خطرفي قلبي أن أكون من

السعودية و باكستان في وقت واحد.

لكن – إن شاء الله – التواصل و التعاون و التلاقي في الله عزوجل مستمر، وقد غمرتني هذه المشاعر العظيمة و سأنقلها بإذن الله إلى المسؤولين في المملكة ولعلماء الحرمين الشريفين وسأكون في صفكم، وسأقول: إن لإخوانكم في باكستان حقا عليكم في زيارتهم ، والجلوس معهم ، والتلاحم معهم، والتواصل بهم، والتعاون معهم على البر و التقوى، وهذه الجموع وهذه اللقاآت التي التقينا كم بها لاشك أنها مما يعين على الخير ومما يحقق مصلحة الإسلام والمسلمين ومما يغيظ أعداء الإسلام و أعداء السعودية و أعداء باكستان و أعداء المسلمين في كل مكان .

أبشروا و أمّنوا و اطمئنوا، وقد اقترحت على المسؤولين هنا: أن يكون هناك مؤتمر يجمع علماء الشريعة و علماء الإسلام في باكستان ، و إخواننا في المملكة العربية السعودية و البلاد الإسلامية الأخرى؛ ليكون موقفا عظيما في إعزاز الإسلام و المسلمين ، و في بيان المواقف الشرعية المهمة في المستجدات و النوازل الخطرة التي تريد أن توقع الشقاق و الخلاف بالأمة ، و إن شاء الله أنا متسائل كثيرا.

فباكستان دولة عزيزة عريقة عظيمة نحبها ،و نحب أهلها المسلمين الحرصين على الكتاب و على السنة و على حب علماء المملكة العربية السعودية وحب الحرمين الشريفين، في مكة المكرمة و الكعبة المشرفة ، و مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه مشاعري نعتزبها و إن شاء الله سيكون لنا لقاآت سواءً في باكستان أوفي مكة، وسيستمر التواصل و أنا في خدمة إخوتي في باكستان في أي شيء يحتاجون في خدمة الدين ولخدمة الإسلام و المسلمين ، و هذا هوالواجب الذي نضطلع به ، ويجب علينا أن نقوم به ، ولا خير فينا إن لم نقم به»و نقدم كل ما نستطيع من أرواحنا وأنفسنا وأموالنا و أوقاتنا وجهود نا في نصرة الإسلام و المسلمين .

نسأل الله للجميع التوفيق و السداد و أيضاً– و نحن في هذا العصر – ينبغي أن نعايش بلغته و بسلاحه ، نحن في عقيدتنا في ديننا، لم يقف الإسلام عاجزا أمام العلوم المعاصرة لكنها لا تمس العلوم الشرعية و الثوابت الدينية و التي تفيه ، إنما تسخر في خدمة هذا الدين ، فنحتاج اليوم إلى الطبيب المسلم و المهندس المسلم والحاسوبي المسلم ، والإعلامي المسلم ، والإداري المسلم، كل على ثغر من ثغور الإسلام، فالله الله يؤتي الإسلام من قبله، شكرا لكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، و صلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

☆.....☆.....☆